دولة حبشية فى اليمن

دولة بنى نجاح
(٤١٢ ـ ٥٥٤ هـ) (١٠٢١ ـ ١١٥٩ م)

تواجه الحبشة الجزيرة العربية ولا يفصلهما إلا البحر الأحمر الهادئ الضيق ، ويمعن فى الضيق حتى ليكاد شاطئاه يلتقيان كلما اتجهنا نحو الجنوب ؛ فمن الطبيعى أن تقوم العلاقات بينهما منذ أقدم الأزمنة . طالما عرف ساكنو الشواطئ الملاحة البحرية وأتقنوها . وتذكر الأساطير الحبشية قيام حضارة فى الحبشة تجمع بينها وبين اليمن ونحن وإن كنا لا نستطيع تحقيق هذه الأساطير على وجه يبعث على الطمأنينة إلا أنها تدل على قيام هذه العلاقة . وقد اتخذت هذه العلاقة مظاهر شتى مثل الغزو ، والصداقة والتجارة والهجرة .

ولدينا من النقوش الكثيرة ما يسجل هذه الفترات والعهود التى كانت فيها بلاد اليمن والحجاز عرضة لغزوات أثيوبية متوالية[١] نقرأ خلالها لأول مرة اسم حَبَشان الذين ربما يكون قد تسلسلوا من حبشة المذكورين فى بعض النصوص الهيروغليفية ويبدو أنهم كانوا مستقرين فى غرب اليمن قرب جبل حبشى . وكان شعبا قويا وربما يكون هو الذى هاجر فيما بعد إلى الحبشة ونقل إليها لسانها وحضارتها .

كما يذكر لنا السائح البيزنطى كوزموس Cosmos أنه شاهد فى أكسوم فى القرن الخامس الميلادى نقشا طويلا بالإغريقية محفورا على عرش من الحجر مهدى إلى آلهة مدينة أدوليس يذكر فيه صاحبه أنه غزا شعوب الجعز والأحابى وغيرها وكلها تقطن أجزاء جبلية صعبة ترويها مياه حارة . ثم أرسل جيشاً آخر إلى أرحابيتس Arrhabites التى تسكن الناحية الأخرى من البحر وأخضع ملوكهم وأرغمهم على

(١) L'Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 44

دفع الجزية . ولكنه ترك لهم أرضهم[٢] كما ترك لهم حرية الملاحة وتسيير القوافل ومن أجل ذلك قدم الشكر إلى الإله العظيم أرس الذى وهبه النصر فجعله ينتصر بنفسه على الشعوب التى تسكن الغرب كما انتصر قواده بالحملات الأخرى التى أرسلها بواسطة البحر . ومن أجل هذه الحملات الأخيرة يقدم الشكر إلى الإله بوزيدون إله البحر الذى كتب لسفنه السلامة .

كما تدلنا النقوش التى عثرت عليها البعثة الألمانية فى أكسوم سنة ١٩٠٥ على قيام الملك عيزانا فى سنة ٣٢٥ م بحملاته المتعددة التى كان من نتائجها أن وصف هذا الملك نفسه بأنه (عيزانا ملك أكسوم وحمير وريدان وأثيوبيا وسبأ وصالحين وسيامو وبيجا وكاسو ، ملك الملوك وابن الإله غير المقهور أرس)[٣] وكانت حملته إلى جزيرة العرب أولى هذه الحملات. وقد كتب هذا النقش باللغات الحبشية والإغريقية والسبأية. وكتابة النص بالحبشية طبيعى فهى لغته، والأغريقية تدل على اهتمامه بإيصال هذا النص إلى العالم الإغريقى الذى كان يتصل به عن طريق أدوليس التى كانت ميناءه على البحر الأحمر ويتردد عليها كثير من تجار الإغريق ، أما السبأية فهى تدل على كثرة رعاياه فى الناحية الأخرى من البحر الأحمر وهم الذين يعنيه أن يقرأوا هذا النص كذلك . وإنهم كانوا يكوّنون جزءًا من رعاياه لا يقل من حيث الأهمية عن الجزء الحبشى . كما نجد النص السبأى يزيد عن النصين الحبشى والاغريقى فقرة يلعن فيها الملك من يحطم ما أقامه ويبارك من يحترمها . كما يرجو من الناس أن يقصُّوا أخبار ما فعله وكذلك أخبار عظمة أكسوم[٤] .

ويبدو أن عيزانا هذا لم يكن مُهِمًّا فى التاريخ الأثيوبى بسبب هذه الغزوات وبسبب إدخاله الديانة المسيحية على المذهب السكندرى إلى الحبشة مما جعل الامبراطور البيزنطى قسطنطين الثانى يحاول تحويله عن هذا المذهب الأريوسى

(2) Ibld 116-118

(3) Budge; History of Ethiopia VI. p. 245

(4) Ibid p. 246

فأرسل إليه تيوفيل Theofile الهندى يحمل كتاباً يطلب منه هذا الطلب ويصف له اتناسيوس Athenasius بطريرك الاسكندرية بأنه مضلل لايجد له مكانا يستقر فيه. ولكن يبدو أن هذه المحاولة انتهت بالفشل ولم يتنازل عيزانا بالرد عليه ، ولكن هذا لم يمنع قسطنطين من أن يحتفظ بعلاقاته الحسنة مع الحبشة بسبب موقعها من اليمن ذات الأهمية الاستراتيجية بسبب الحروب الرومية الفارسية التى كانت ناشبة آنذاك.

وليس لدينا فى هـذا النقش ما يفيد إقامة حكم حبشى هناك يستند على حكام من الأحباش . بل كل ما عرفناه من هذا النص أن أجزاء من بلاد اليمن خضعت لملوك أكسوم فكونت جزءًا من امبراطوريته وإن لم تستمر خاضعة له إلا إلى أكثر من سنة ٣٧٩م حين استطاع ملكى كرب أن يستقل باليمن بعيداً عن النفوذ الحبشى(٥) على أن الحكام الأحباش ظهروا فى الغزوة الحبشية التالية التى قام بها الملك الاأصبها فى سنة ٥٢٤م ثم الغزوة التى تلتها أيضا التى شنها الملك كالب لنصرة مسيحيي نجران حين اضطهدهم ذو نواس فقدم هـذا الملك وهزم ذا نواس وأقام أبرهة نائباً عنه وكان ذلك فى بداية القرن السادس الميلادى(٦) وقد ظل النفوذ الحبشى فى اليمن وظل الولاة الأحباش يحكمون هذا الجزء من الامبراطورية الحبشية إلى أن استنجد اليمنيون بالفرس حين فشل الأحباش فى غزو الحجاز فجاء الغزو الفارسى سنة ٥٧٥ م ووضع حدًّا للحكم الحبشى ، وقد أفاضت المصادر العربية فى ذكر هذه الغزوة .

أما علاقات الصداقة فقد بدأت منذ أقدم الأزمنة أيضا فقد أرسل الأمبراطور جستنيان إلى كل من الملك كالب وأبرهة أمير اليمن مقترحا تكوين حلف يقف أمام الخطر الفارسى(٧) وكان ذلك عشية ظهور الإسلام ، وعند ما ظهر الإسلام وأنزل المشركون الأذى بالمسلمين نصح النبي أنصاره بالهجرة إلى الحبشة(٨) لأن بها ملكا

(٥) L'Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 245

(٦) L,Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 464

(٧) L'Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 164

(٨) الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ٢ ص ٢٩

لا يظلم عنده أحد . وهاجر المسلمون إلى الحبشة هجرتين قادها فيهما عثمان بن عفان وزوجتاه ابنتا رسـول الله . ولقى المسلمون كل ترحيب من النجاشي الذى رفض تسليمهما فى المرتين وإعادتهما[٩] وإن احتواء وفدى الهجرة على عدد من النساء يدل على تأكد المسلمين من موافقة الرحلة لهن ولم يكن هذا التأكد إلا نتيجة تردد المسلمين على هذا الطريق أكثر من مرة ووثوقهم من شعور الصداقة والود الذى سوف يلقونه فى الحبشة ساعة وصولهم . وكان هذا الشعور صحيحا إذ مكث المهاجرون فى الحبشة يلقون كل ترحاب طيلة ست عشرة سنة . ومن أجل هذا ظلت العلاقات الحسنة تربط كلا من النجاشي والنبي طيلة حياتهما . فتبادلا الهدايا أكثر من مرة[١٠] وكان النبي يحمل كثيراً من الود بل من الحب للأحباش ويؤكد أن من أدخل بيته حبشيا أو حبشية أدخل الله فى بيته رزقا[١١] .

وإذا كان المسلمون قد قاموا بعد ذلك وبدأوا حركة فتوحهم الكبرى فأطاحوا بعرش كسرى وقضوا على الامبراطورية الفارسية . واقتطعوا من الدولة الرومانية أجزاء كبيرة كالشام ومصر وشمال إفريقية حتى انتهوا إلى المحيط الأطلسى فإنهم لم يقربوا الحبشة غازين ولا فاتحين . رغم قرب هذه البلاد منهم ورغم ما بها من مظاهر الإغراء كالمرعى الغنى والتربة الخصبة والثروة الدافقة .

ولـكن إذا كان المسلمون لم يقصدوا الحبشة غازين أو فاتحين فإنهم قصدوها ودخلوها دخولا سلميا حيث استقروا وعملوا وظهر فى تاريخ الدولة الإسلامية الجديدة من العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ما دفع بالمسلمين إلى هـذه البلاد يتخذون منها مقاما ومستقراً. فقد أبت كثير من القبائل العربية غير القرشية أن تخضع لسيادة قريش عليها . ورأت فى هذه الخلافة الإسلامية الجديدة مظهراً من مظاهر

(٩) ابن جرير الطبرى ج ٢ ص
(١٠) الجواهر الحسان ص ٩٦
(١١) أعلام الطراز المنقوش فى محاسن الحبوش ورقة ٥ ـ ١

هذه السيادة(١٢) فأخذت طريقها نحو بلاد لا تكون خاضعة لهذه السلطة الجديدة التى حولتها قريش إلى مافيه عصبيتها ومنافعها. كما أبى الشيعة أن يخضعوا لسلطان الأمويين بعد أن أشاعت مذبحة كربلاء بينهم شعوراً بالفزع والهلع(١٣) كما أشاع الأمويون مثل هذا الشعور فى أهل الحجاز بعد نجاحها فى سحق ثورة ابن الزبير حين قتلوا أغلب من بقى فيه من المهاجرين والأنصار وانتهكوا حرمة الأماكن المقدسة(١٤) ففر أهل المدينة لينجوا بحياتهم إلى الأقطار النائية . كما كان إهمال الأمويين للحجاز ورميهم لأهله بكل طاغية جبار يمعن فى إذلال القوم(١٥) داعيا لإسراع الخراب إلى هذه البلاد(١٦) التى كانت مهبطا للوحى ومصدرا للنور . وسكن هؤلاء القادمون أقرب الأجزاء إلى بلادهم وهى الأجزاء الشرقية من الحبشة حتى كونوا على مدى الزمن شريطا من البلاد الإسلامية يشتغل أهلها فيما يعود عليهم بالنفع والخير .

وإذا كان كثيرون من هؤلاء المهاجرين قد احترفوا الرعى كما كانوا يحترفونه فى شبه الجزيرة أو أقبلوا على الاشتغال بالزراعة إلا أن أكثرهم قد أقبل على احتراف التجارة . ولم يكن هذا جديداً على هذا الركن من العالم. فقد كانت العلاقات التجارية بين جزيرة العرب والحبشة أو بين هذه الأخيرة والعالم الخارجى عن طريق شبه الجزيرة العربية منتعشة منذ القدم . فقد كانت بلاد بنت ، بالنسبة لسكان مصر ، الأرض المقدسة التى ترى أشجارها مرسومة على جدران هياكل مصر . كما كان البطالمة يرسلون السفن الضخمة لتحمل الأفيال الحية من أجل احتفالاتهم فى ممفيس . وظلت صناعة العاج صناعة نامية فى الاسكندرية لعصور كثيرة قبل الميلاد واستوردتها منهم الدولة البيزنطية والعالم الهلينى كله(١٧) حتى إذا أنشئت مدينة أدوليس على الساحل جاءتها

---

(١٢) الفتنة الكبرى ج ١ ص ٣٧

(١٣) تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٤٢١

(١٤) الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٥٦

(١٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٣

(١٦) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٠٠

(١٧) L'Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 100

جموع الأحباش يحملون تجارتهم من العاج والحنطة والجلود والقرود والرقيق يبادلون بها الملابس والأقمشة البيضاء والملونة التى يحملها إليها التجار العرب آتين من الشام وفارس. وكانت تجارة الرقيق تجد سوقا رائجة فى الجزيرة العربية وكذلك فى الدولتين الفارسية والرومية وانحدر التجار جنوبا على طول الشاطئ الإفريقى حيث وجدوا خليجا مملوءا بالجزر كان يطلق على مدخله اسم باب إزيس الذى أخذ يتحرف شيئاً فشيئاً حتى صار عصب[١٨] وكانت قوافل العرب قبل الإسلام تسافر رحلتى الصيف والشتاء لتحمل إلى اليمن منتجات الشام من الحرير والملابس الحريرية والقطيفة المطرزة بالذهب وكذلك الرخام وتبادل بها منتجات اليمن والحبشة والهند من الزمرد والذهب والعاج والحبوب[١٩] على أن أكثر مواد التجارة تداولا بين التجار المسلمين الذين سكنوا الحبشة بعد الإسلام كان الرقيق . فقد اتخذ هؤلاء التجار منه حرسا لقوافلهم خلال سفرها الطويل . ويبدو أن إقبال الخلفاء والوزراء والأمراء والأغنياء على اقتناء الرقيق وصل حداً عاليا منذ قيام الدولة العباسية . فقد كان فى بغداد شارع يسمى شارع الرقيق[٢٠] وكان هذا الرقيق أنواعا مختلفة منهم السود من السودان والحبشة ومنهم البيض من الأتراك والصقالبة[٢١] ويبدو أن الإقبال على الحبشيات لم يكن ضعيفاً رغم ما عرف عنهن من عدم إتقانهن للرقص والغناء لأنهن كن قويات الخلق وموضع الثقة وأهلا للاعتماد عليهن[٢٢] ولكننا نقرأ أنه كان من بين هذا الرقيق رجال من الأحباش أسرف حكام هذه الأجزاء فى طلبهم من أجل استخدامهم فى القتال . فقد كوّن أحمد بن طولون كما كوّن محمد بن طفج الأخشيد فى مصر فِرَقاً كاملة منهم . بل اتخذ أحدهم مؤدباً لولده لم يلبث أن أصبح

(١٨) L,Empire du Prêtre-Jean T. I. p. 103

(١٩) Ibid p. 172

(٢٠) ضحى الإسلام ج ١ ص ٨٥

(٢١) نفس المصدر ص ٨٧

(٢٢) نفس المصدر ص ٨٨

صاحب الكلمة العليا فى مصر كلها هو كافور الإخشيدى . وكذلك فعلت الدولة الفاطمية ولم يكن شأنهم فى اليمن أقل من ذلك بل ربما كان أكثر فقد اتخذ منهم بنو زياد ولاة اليمن من قبل العباسيين جنداً اعتمدوا عليهم حين فتحوا حضرموت والشحر وعدن والتهايم ومخلاف جعفر والمعافر وصنعاء ونجران بل وصلت فتوحهم إلى الحجاز أيضا[٢٣] بل استطاعوا أن يكوّنوا دولة موطدة الأركان كان الجند الحبشى عدتها . ويبدو أن تجار الرقيق قد وزعوا أعمالهم توزيعا عادلا عاد عليهم بأكبر النفع فقد كانوا يتصيّدون من الحبشة والسودان الرجال والنساء . فيرسلون بالأولين إلى اليمن[٢٤] ومصر بينما يرسلون بالأخريات إلى أسواق بغداد . ووصل بعض الأولين إلى مراكز عالية . لما اشتهر عنهم من أمانة وشجاعة فائقة فقد قال فيهم الشاعر العربى :

لو لم يكن فى الحسان الحبش نافلة　　إلا شجاعتهم والعزم والباس
لكان ذلك كاف فى محبتهم　　فكيف ذاك وهم من أجمل الناس[٢٥]

ولكن ليس معنى ذلك انعدام وجود النساء الحبشيات فى اليمن أو الرجال فى العراق بل كن قلة فى اليمن ومصر بالقياس إلى الرجال وعكس ذلك فى العراق . فقد اتخذ أبو الجيش إسحق بن إبراهيم بن زياد وزيرا له عبدا حبشيا يسمى رشيدا . حتى إذا مات أبو الجيش ترك ولدا صغيرا هو عبد الله تولت كفالته أخته هند وأشركت معها فى تربيته رشيدا وزير أبيها . ولكن هذا الأخير لم يلبث أن مات فورثه فى منصبه ابنه حسين وكان عفيفا شهما حسن السيرة تولى كثيرا من الأعمال فى حياة أبيه[٢٦] فظل موضع الثقة والتقدير من هند وأخيها حتى كان تصريف أمور الدولة كلها فى يده فكان هو المدافع الوحيد عن مملكة بنى زياد[٢٧] فقاد الحملات إلى كل من خرج

---

(٢٣) تاريخ اليمن ص ٩٣

(٢٤) تاريخ اليمن ص ١١٦

(٢٥) أعلام الطراز المنقوش ورقة ٥

(٢٦) اللطايف السنية ورقة ١١ ب

(٢٧) المختار من تاريخ ثغر عدن ورقة ٢٧٥

عن طاعتهم حتى دانوا جميعا وحملوا إليهم الخراج . وإذ مات الحسين كان عبـــد الله ابن زياد قد مات أيضا وترك ولدا صغيرا كفلته عمته وأشركت معها فى الحكم عبدا حبشيا آخر من عبيد الحسين هو مرجان ومن ذلك ندرك مبلغ ماوصل إليه الرقيق الأحباش فى اليمن من مكانة ونفوذ حتى أصبح بقاءالدولة أوخرابها بيدهم وحدهم .

وكان الشيعة من أنصار على بن أبى طالب قد لقوا منذ أيام كربلاء من كل من الدولتين الأموية والعباسية كل اضطهاد فقد أمعن خلفاء كل من الدولتين فى تتبعهم وإنزال الأذى بهم حتى لقد لجأوا إلى الفرار إلى الأقطار البعيدة فلق شمال إفريقيا[٢٨] كما لقيت شواطئ شرق إفريقيا[٢٩] واليمن[٣٠] كثيرين منهم أخذوا فى نشر مذهبهم والتف الناس حولهم فى اليمن ينصرونهم . يدفعهم إلى ذلك إيمان بهذا المذهب من تأثير الثقافة الفارسية التى كانت منتشرة هناك منذ أيام الغزو الفارسى من ناحية . وشعورهم بإهمال الدولة الإسلامية لبلادهم واهتمام الخلفاء بجمع المال منهم[٣١] أكثر من اهتمامهم بإنماء موارد البلاد والنظر إلى ما فيه مصلحة الأهالى من ناحية أخرى . فظهر فى اليمن أئمة كثيرون مثل القاسم بن على الزيدى . وجعفر بن الإمام . ثم ابنه هلال بن جعفر . وكذلك قاسم بن حسين الزيدى . ثم محمد بن القاسم وأخوه الحسن بن القاسم وأخوه الآخر حسين بن القاسم . ويوسف بن يحي . وكلهم يتخذ الدعاة ويدعو إلى نفسه فى ناحية من نواحى اليمن مما أشاع فى البلاد جوا من الاضطراب[٣٢] وزاد من هذا الاضطراب ما كان عليه ولاة العباسيين من بنى زياد من كبر السن والضعف . فقد استطال حكم إبراهيم بن محمد بن زياد إلى قرابة أربعين سنة كما استطال حكم ولده إسحق إلى أكثر من ثمانين سنة خرج فى أثنائها الولاة على أسيادهم وانضموا إلى الشيعة كما فعل عبدالله

(٢٨) ابن خلدون ج ٦ ٧٠

(٢٩) الدعوة إلى الإسلام ص ١٣٥

(٣٠) اللطايف السنية ورقة ١١ ب

(٣١) قرة العيون ورقة ٣٨ ــ ا

(٣٢) المختار من تاريخ ثغر عدن ورقة ٢٧٩ ا

ابن قحطان بن يعفر أمير صنعاء سنة ٣٧٩هـ حتى إذا أرسل إليه أبو الجيش اسحق ابن إبراهيم جيشا يرده إلى الطاعة أوقع به الهزيمة ثم دخل زبيد حاضرة بنى زياد وقطع الخطبة للخليفة العباسى وأقامها للعزيز بالله الفاطمى(٣٣) وبذلك أصبحت القوة السياسية تساند الدعوة الدينية . وأنصارها يزدادون عددا ويقابل ذلك ازدياد نشاط دعاة الشيعة بعد أن زال عنهم التضييق الذى كانوا يلاقونه من بنى زياد . فوجد الموالى من الأحباش أن الإغضاء على هذه الحالة فيه ضياع لسلطانهم خصوصا وقد مات القائم من بنى زياد وترك ولداً صغيراً كفلته عمة له يساعدها الوزير الحبشى مرجان وأصبحت صنعاء كالكرة بين اللاعبين يتداولها الولاة مما أسرع بخرابها فرحل سكانها وهجرت دورها ولم يبق بها سوى ألف دار ومائة مسجد واثنى عشر حمّاما بعد أن بلغت فى أيام هارون الرشيد وابنه المأمون مائة وعشرين ألف دار(٣٤) وغلبهم على عدن ولحج وحضرموت بنو معن وعلى التعكر والدملوه بنو الكريدى. وانقسم اليمن الأعلى بين آل يعفر وآل الضحاك وآل أبى الفتوح وكلهم علويون(٣٥) فلم يجد هذا الوزير بدًّا من أن يعمل فأغرى عبداً له يسمى نفيس فقبض على الأمير الطفل وعمته وقتلهما وأعلن نفسه سلطانا على زبيد سنة ٤٠٧ هـ واتخذ مظاهر الملك . وأخذ فى إخضاع البلاد . ولكنه كان غشوما ظلوما . فلم تلبث أن تكتلت معارضة قوية التفت حول زعيم حبشى آخر يسمى نجاح كان يحكم الأقاليم الشمالية فقدم إلى زبيد بجموع عظيمة ودارت بينهما الوقائع التى انتهت بقتل نفيس على باب زبيد . ودخل نجاح منتصراً بعد أن قتل من الفريقين أكثر من خمسة آلاف وبدأ نجاح فى سنة ٤١٢ هـ الدولة التى حملت اسمه ولقب بالمؤيد ناصر الدين . وبدأ عمله بأن قبض على الوزير مرجان وقتله .

---

(٣٣) قرة العيون ورقة ١٧ ــ ا

(٣٤) اللطايف السنية ورقة ١٣ ا .

(٣٥) نفس المصدر ورقة ١٣ ب .

ومن الطبيعى أن يكون أول عمل له هو القضاء على الأمراء الذين استقلوا بأجزاء اليمن المختلفة من أجل توطيد سلطته. ولم يكن هذا العمل سهلا إذ قضى فيه أغلب مدته وقد طالت إلى أربعين سنة .

بدأ نجاح بأن أخضع أمراء تهامة شمالا فوصل إلى عسير التى يبدو أنها كانت آخر حدود دولته شمالا . ثم انحدر إلى صنعاء حيث كان بها بنو همدان ثم أمعن جنوبا حيث بنو معن فى عدن . ثم سار إلى الشرق حيث أخضع حضرموت وبذلك دانت له اليمن كلها . بل بلغ من سطوته أن اضطر دعاة الشيعة إلى التخفى . وأظهر له كبير دعاتهم سبأ بن أحمد الصليحى الطاعة . وأخذ يتودد إليه بل أرسل له الهدايا (٣٦) ولكن ذلك لم يكن ليثنيه عن عزمه وهو نشر الدعوة لأسياده من الشيعة . فقد كان المستنصر بالله الفاطمى يوالى إرسال المال له . ولكن يبدو أن نجاحا كان به ميل إلى النساء ولهن تأثير شديد عليه إذ لم يتردد فى قبولهن كهدايا رغم كبر سنه الذى امتد إلى أكثر من ثمانين فكانت هذه الوسيلة هى التى لجأ إليها الصليحى للقضاء عليه فأهداه جارية دست له السم فمات سنة ٤٥٢ وترك ثلاثة أولاد وبنتين كلهم صغار فكان صاحب السلطة مولى حبشيا لهم يسمى كهلان ولذا لم يطل أمرهم أكثر من ثلاث سنوات أكمل فيها الصليحى عدته فسار إليهم فى زبيد فهربوا إلى دهلك (٣٧) .

وكانت دهلك قد دخلت فى حوزة الدولة العربية منذ أيام الأمويين واتخذوا منها قاعدة لمراقبة القرصان الذين كانوا يكثرون من الإغارة على شواطئ الحجاز وأيضا لمراقبة الشيعة الذين هربوا إلى الحبشة وأخذوا يساعدون أولاد الزبير فى ثورتهم حتى إذا انتهت ثورة الزبير ألحقت دهلك بإمارة اليمن فتركوها لأهلها على أن يدفعوا لوالى اليمن ضريبة سنوية هى ألف رقيق من الأحباش نصفهم من النساء (٣٨)

---

(٣٦) المختار من تاريخ ثغر عدن ص ١٢٧ ا

(٣٧) قرة العيون ورقة ٤٠ ب

(٣٨) الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ص ١٦

فكانوا يرسلون بأغلب النساء إلى بغداد ويحتفظون بالرجال ويتخذون منهم جندا .

وحكم الصليحى اليمن نائبا عن المستنصر بالله الفاطمى فعمل على إحياء المذهب الشيعى ونشر له الدعوة لا فى اليمن فحسب بل فى الحجاز أيضا حتى إذا توطد له الأمر هناك سافر للقيام بفريضة الحج سنة ٤٥٩ ومعه زوجته وجميع آل الصليحى[٣٩] مستخلفا ولده المكرم أحمد بن علىّ ، ولكنه لم يكد يمعن فى رحلته شمالا حتى نزل سعيد الأحول أكبر أولاد نجاح فى ساحل تهامة وتتبعه إلى مكة ولحقه قبل أن يدخلها فدارت بينهما معركة انتهت بقتل الصيلحى وكثير من أهله وأنصاره وأسر زوجته فظلت فى أسره ثمانية أشهر اتصلت خلالها بولدها المكرم وأثارته ليأخذ بثأر أبيه فخرج إليه فى ثلاثة آلاف فارس ونجح فى هزيمة سعيد رغم ما كان معه من جيش كبير بلغ عشرين ألفا[٤٠] وفر الأحول من جديد إلى دهلك . بينما عاد المكرم إلى صنعاء ومعه والدته واستمر يحكم عشرين سنة كان سعيد وأخوه جياش فى أثنائها يعيشون فى دهلك يكملان ثقافتهما[٤١] ولم يلبث سعيد أن بدأ يدبر المؤامرات ضد حاكم دهلك وجياش أخوه يمنعه من ذلك حفظاً لحق الصداقة . وخرج سعيد مغضباً إلى زبيد حيث عاش متنكراً يراقب الأحوال . حتى إذا تبين له أن الفرصة قد حانت كتب إلى أخيه ليلحق به .

وفى التاسع من ذى القعدة سنة ٤٧٣ أظهر سعيد وأخوه دعوتهما فأرسلت لهما والدة المكرم ـ بمعاونة أخيها أسعد بن شهاب أمير زبيد قوة بلغت خمسة آلاف كلهم من الأحباش فتمكن سعيد من استمالتهم فانقلبوا على الصليحيين ودخل سعيد زبيد وأرسل إلى دهلك يشترى من الرقيق الأحباش من يستزيد بهم من قوته[٤٢] .

---

(٣٩) اللطايف السنية ورقة ١٧ ب

(٤٠) اللطايف السنية ورقة ١٨ ب

(٤١) Kay p. 81

(٤٢) Ibid p. 87.

ولكن المكرم ومعه أمه استطاعا أن يستردا عرشهما ويقتلا سعيدا وكان أنصاره قد بدأوا يتألبون عليه لما أظهره من التكبر والصلف فهرب جياش إلى الهند . ولكن غيبته لم تطل وعاد بعد ستة أشهر وأقام متنكراً فى عدن وينشر الإشاعات أنه قد مات فى الهند ليبعث الطمأنينة فى نفوس الصليحيين .

ويبدو أن حكم الصليحيين لم يكن ناجحا فقد غلبهم كثير من دعاة الشيعة واستقلوا بأجزاء كثيرة من اليمن كما فعل الشريف الفاضل وأخوه الأمين الملقب بذى الشرفين حين نزلا حصن شهارة وشنا الحرب وحاصرا صنعاء حتى أضعفوا أعوان الصليحى واستقلوا بصعدة . ثم سارا إلى الحوف سنة ٤٦٨ وخضع لهما أهلها ولما مات الشريف الفاضل استقل أخوه بالأمر وفتح عدن وأدّب أهلها وظل يحكمها دون منازعة من الصليحيين حتى سنة ٤٦٩ حين مات وورثه ابنه محمد بن جعفر .

كما لم يهتم الصليحيون بالنظر فى أحوال البلاد من أجل تحسينها رغم استمرار حكمهم مدة استطالت إلى عشرين سنة فقد كان المكرم مريضا فلم يباشر الأمور بنفسه بل تركها إلى زوجته سيدة التى لقبت بالسيدة الملكة الصليحية(٤٣) فكان يدعى لها على المنابر بعد اسم زوجها(٤٤) كما عكف المكرم رغم مرضه على اللذات ينتهبها أينما وجدت فأحاط نفسه بجميع أسباب الرفاهية حتى إنه حين سافر إلى مكة حاجًّا أخذ معه خمسمائة نجيب عليها مراكب الفضة وخمسين هجينا عليها أكوار الذهب مما أشاع السخط بين أنصاره وأقاربه . كما لم يكن حكم المقاطعات للأكفاء بل كان يعطى لمن يدفع فيها أغلى ثمن(٤٥) ولا بد أن نتيجة هذا كله لم تكن سوى إجحاف الولاة بالشعب ليستردوا ما دفعوا فليس بغريب أن ينتشر السخط بين الناس وخاصة الجند(٤٦) حتى إذا عاد جياش من الهند أدرك سخط الناس من حكم الصليحيين

---

(٤٣) المختار من تاريخ ثغر عدن ورقة ٤٢

(٤٤) نفس المصدر ورقة ١٤٠

(٤٥) نفس المصدر ورقة ١٣٨

(٤٦) نفس المصدر ورقة ٢٥٨

فاتصل بعليّ بن القم الذى كان وزيرا للأسعد بن شهاب ومنه عرف سوء الحال . واستعداد هذا الأخير لمناصرته فكشف له عن شخصيته واتفقا على الوثوب على الصليحيين بعد أن أعلمه باستعداد الأحباش لنصرته وأنه قد أعد منهم خمسة آلاف محارب حول زبيد (٤٧) وخمسة آلاف دينار للصرف على قضيته وأنه كاتب إمبراطور الحبشة فأمده بقوة أخرى(٤٨). ولم يطل الأمر فقام جياش ودعا الناس لنصرته بضرب الطبول ونفخ الأبواق فثارت معه عامة أهل المدينة وكلهم ساخط على الصليحيين بل انضم إليه كل قادر على حمل السلاح فبلغوا عشرين ألفا، فلم يسع اسعد بن شهاب سوى التسليم فاستقام الأمر لجياش ولقب بنصير الدولة وبذلك عادت دولة آل نجاح سنة ٤٨١ بعد أن غابت عشرين سنة ومات المكرم فى ذى جبلة سنة ٤٨٤ فورثه ابنه وكان صغيراً فنازعه ابن عمه سبأ بن أحمد مما فت فى عضد أحزاب الشيعة فانضم حمزة بن ذى الشرفين إلى آل نجاح حين دارت الحرب. وكانت تهامة سرحها. وتداولها الفريقان أكثر من مرة ولكن لم يلبث سبأ أن مات سنة ٤٩٢ فاستقام الأمر لجياش. وكان شجاعا(٤٩) فعرف كيف يسوس الأمور فى حزم وشجاعة فقد كان الموقف يستلزم هذا النوع من الرجال لإخضاع الزعماء الذين طال بهم الاستقلال من جراء ضعف الصليحيين . فانتهز فرصة اختلاف بنى ذريع وقد ملكوا عدن فأخضعهم (٥٠) وأبقاهم فيها معترفين برئاسته عليهم كما أخضع بنى القم فى صنعاء وأبقى لسيدة، والدة المكرم الصليحى منطقة تعز فظلت تحكمها معترفة بسلطة آل نجاح إلى أن ماتت سنة ٥٣٢ (٥١)

ومات جياش فى ذى الحجة سنة ٤٩٨ بعد أن حكم اثنين وثلاثين سنة وطد فيها

(٤٧) اللطايف السنية ورقة ٢٠ ب

(٤٨) L'Empire du Prêtre Jean. V. I p. 20.

(٤٩) المختار من تاريخ ثغر عدن ورقة ٢٦٣

(٥٠) اللطايف السنية ورقة ٢١ (٥١) قرة العيون ورقة ٤٣ ا

أركان دولته إلا أن أولاده عبد الواحد وفاتك وإبراهيم اختلفوا ولـكن لم يطل اختلافهم فقــد ظفر فاتك وهرب عبـد الواحد بينما خضع إبراهيم وعاش مع أخيـه مخلصا له .

وإذا ما انفرد فاتك بن جياش بالأمر أكمل عمل أبيه فى إخضاع الأمراء فاستكثر من الجند الأحباش وأسبغ عليهم. وتمتع فاتك بحكم هادئ أمن فيه الناس على أموالهم وحياتهم لما اشتهر به من علم وعدل وتقريب للعلماء وتشجيع لهم(٥٢) حتى مات سنة ٥٠٣ تاركا ولداً صغيراً يدعى منصورا . فانتهز إبراهيم الفرصة وقدم يريد الظفر بالعرش ونجح فى ذلك فاتجه منصور إلى الفضـــل بن أبى البركات الحميرى صاحب التعكر والسيدة الحرة الصليحية فأكرما مثواه وبذلا له المساعدة لقاء أن يترك لهما ربع ما يجبيه (٥٣). كما التف حوله عبيد أبيه من الأحباش وتمكنوا جميعا من استرداد العرش سنة ٥٠٤ هـ

وفى أيامه إشتدت الدعوة الشيعية وظهر كثير من دعاتها وتقبلها كثيرون وكانت أقاليم صعدة ونجران والجوف أسرع الأقاليم استجابة لهؤلاء الدعاة وربما كان ذلك لبعدها فى الشمال . إلا أن السلطان عرف كيف يتغلب عليهم منتهزاً فرصة اختلافهما وعدم إجماعهم على إمام واحد وتفرق الناس بين الأئمة المختلفين فقد كانت الحروب التى دارت بينهم أكثر من الحروب التى دارت مع السلطان .

وخلف منصوراً ولده فاتك الثانى فدانت له البلاد فظل يحكمها على أحسن ما يكون الحـكم متتبعا سياسة أبيه فى تتبع دعاة الشيعة والقضاء عليهم حتى سنة ٥٣١ فقضى على الشريف غانم السليمانى وقد ثار فى المهجم كما قضى على عمه محمد بن فاتك بن جياش حين ثار فى زبيد منتهزاً فرصة خلوها من الجند وسحق الداعى سبأ بن أبى السعود .

وكان من جراء هذه الحروب الـكثيرة المتوالية أن اضطر إلى الإكثار من الجند من الأحباش فزاد نفوذهم حتى أصبحوا أصحاب السيادة فى الدولة . فإذا مات

(٥٢) نفس المصدر ورقة ٤٢ ب

(٥٣) Kay p. 94.

السلطان دون أن يترك ولداً أجمع رؤساء الجند على اختيار ابن عمه فاتك بن محمد بن منصور بن فاتك بن جياش وكان ضعيف العزم قليل النظر فى السياسة منهمكا فى اللهو واللعب والفساد فكان الأمر كله فى يد الجند يسيرونه وفق أهوائهم فكانوا هم الذين يولون الوزراء ويعزلونهم (٥٤) وفى سنة ٥٣١ أجمع الجند على أن يجعلوا فى الوزارة قائدهم سرور وكان عبداً حبشيا أمهريا تربى فى قصر السلطان وما زال يرتفع حتى أصبح صاحب الكلمة العليافى القصر . فكان — وإلى جانبه الملك الضعيف المنصرف إلى اللهو — صاحب السلطة الفعلية لعشرين سنة قبض فيها على البلاد بيدمن حديد . فكان من جراء هذه الشدة أن انكمش دعاة الشيعة فى أسفل الوادى . ولم يعودوا يزاولون نشاطهم إلا معتمدين على نسكهم وتمسكهم بالعبادة . كما كان يفعل السيد على بن المهدى وأبوه حين أقاما فى قرية تسمى العنبرة بأسفل وادى زبيد (٥٥) مسالمين فوثق بهم سرور وترك لهما خراجا مكنهما من البذل وشراء الأنصار (٥٦). وحاول الثورة فى سنة ٥٤٠ حين اجتمع له أكثر من أربعين ألفا . وهجم على حصن الكورا وبها مرزوق السحرى من قبل آل نجاح إلا أنه هزم . فانسحب عائدا إلى حيث كان وقدأيقن أن طريق الشدة لن يجديه نفعا فلجأ إلى المؤامرات يدبرها من أجل قتل سرور إذ أيقن أن طريق الإمارة مسدود أمامه بل أمام جميع الثائرين طالما هذا القوى يهيمن على الأمور ويدبّرها . فتمكن من الاتصال بواحد من أنصاره يسمى محرما وأغراه بالمال فانتهز هذا الأخير فرصة سجود الوزير وهو يصلى فانقض عليه وقتله وقبض على القاتل وقتل فى ساعته .

وبقتل سرور ضعف أمر الأحباش إذ اختلفوا وانقسموا أحزابا يلتف كل فريق حول زعيم وكان سخط الناس قد بلغ الذروة من جراء هذا التطاحن . ومن جراء ما كان يأتيه السلطان من فجور فاق كل حد . ومن الطبيعى أن يكون هذا سبباً

---

(٥٤) قرة العيون ورقة ٤٥ ب (٥٥) نفس المصدر ورقة ٤٧ ا

(٥٦) اللطايف السنية ورقة ٢٣ ب

فى تفكير الناس فى الخروج عن طاعة هذه الأسرة خصوصا إذا قورن ما كان يأتيه السلطان بما كان يمارسه زعماء الشيعة وعلى رأسهم على بن مهدى من نسك وتعبد .
فاغتنم الفرصة ابن مهدى وهبط من الجبال سنة ٥٥٢ وزحف بجنوده على زبيد وتفرق الناس عن آل نجاح ومواليهم من الأحباش حتى إذا أتى زبيداً وحاصرها قاومه أهلها مقاومة عنيفة ضرب بها المثل فصدوا هجمات ابن مهدى وقد بلغت اثنتين وسبعين هجمة وصبروا على الضر حتى أكلوا الميتة(٥٧) . واستنجد أهلها بالإمام أحمد بن سليمان المهدى صاحب صعدة فأنجدهم طمعا فى الملك بعد أن اشترط عليهم قتل سلطانهم فقتلوه . ولكنه عجز عن نصرتهم فارتد قبل أن تدور الدائرة عليه . وأخيرا عمل طول الحصار — وقد امتد قرابة العام — عمله فى الأهالى فاستسلموا فى الرابع عشر من رجب سنة ٥٥٤ فكانت نهاية دولة بنى نجاح بعد أن دامت قرنا ونصف قرن . وانتهى بانتهائها نفوذ الحبشة فى اليمن .

ولا شك أنها كانت دولة حبشية بكل ماتعنى هذه الكلمة من معان . حبشية بسلاطينها . حبشية بوزرائها . حبشية بجنودها وعدتها . حبشية بنظمها وتقاليدها فيمكننا أن نعدها استمرارا للدويلات الحبشية التى قامت فى اليمن فيما سبق من الزمن والتى كان آخرها دولة أبرهة التى أقامها كالب فى القرن السادس الميلادى . ولا تختلف عنها إلا فى كونها دولة إسلامية بينما كانت الدويلات الحبشية السابقة وثنية أو مسيحية. وهى فى هذه الناحية تشبه تلك التى قامت فى نفس الوقت فى شرق هضبة الحبشة وهى دولة شوا الإسلامية التى قامت فى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى واستمرت حتى نهاية السابع الهجرى وأواخر الثالث عشر الميلادى(٥٨) ولكنها تختلف عنها فى أنها كانت سنية بينما كانت أختها فى الحبشة شيعية ولذا لم تقم بينهما علاقة رغم تجاورها . ولكن ربما كان هؤلاء الدعاة الشيعيون الذين ظهروا فى اليمن خلال حكم آل نجاح مرسلين من قبل آل مخزوم فى الحبشة من أجل القضاء على النفوذ السنى فيها وضمها إلى بلادهم . وهذا رأى مازال محتاجا إلى تحقيق .

(٥٧) قرة العيون ورقة ١٤٧ (٥٨) Rassegne di studi Etiopici No. I.

نظام الحكم: ما إن تولى السلطة نجاح بعد أن قتل نفيس وتغلب على مرجان حتى كاتب الخليفة العباسى وبذل الطاعة ففوض له النظر فى أمر الجزيرة اليمنية(٥٩). وبذلك أصبح السلطان صاحب السلطة العليا فى البلاد باعتباره نائبا عن الخليفة فى حكم اليمن. بل قلده الخليفة حق تقليد القضاة وهو أمر كان بيد الخليفة وحـــده باعتباره صاحب السلطة الدينية وأمير المؤمنين. ونزول الخليفة عن هذا الحق للسلطان جعل السلطان يملك القوتين المدنية والدينية. وبذلك أصبح السلطان مطلق التصرف فى جميع أمور البلاد. فهو الذى يعين الوزراء، وأمراء الجيش وولاة الأقاليم والقضاة ويعزلهم، ويقتلهم إذا خرجوا عليه أو خلعوا يمين الطاعة(٦٠). وكان إلى جانبه مجلس ينزل عند حكمه(٦١) ولا نعرف تماما كيف يتكون هذا المجلس ولا مدى سلطته. ولكن يبدو ـ على أغلب الظن ـ أنه كان يتكون من العلماء الذين يطلق عليهم اسم الاستاذون(٦٢) وهم علماء المذاهب السنية المختلفة. ولابد أن مهمتهم كانت ـ على الأقل ـ فحص أوامر السلطان وتحقيق مدى انطباقها على الشريعة، وربما كانوا يستشارون فى الأمور الكبيرة مثل تعيين الوزراء وذوى المناصب الهامة فى الدولة(٦٣).

وقد جرت عادة السلطان على تقسيم البلاد إلى أجزاء ثم إعطاء كل قسم إلى أمير أو زعيم يحكمه لقاء ما يحمله هذا الأمير إليه كل عام من الخراج والأموال(٦٤) بل كان لابد له أن يدفع مقدما بعض الأموال التى يقدرها السلطان وفق ما يرى(٦٥).

وإذا كان سلاطين آل نجاح قد رضوا بهذه التبعية للخلافة فى بغداد إلا أنها فى الواقع كانت تبعية اسمية فلم يكن هناك من مال يحمله السلطان إلى الخليفة بعكس

---

(٥٩) قرة العيون ورقة ٤٠ ا

(٦٠) نفس المصدر ورقة ٤٤ ا

(٦١) Kay p. 96

(٦٢) قرة العيون ص ٤٦ ا

(٦٣) نفس المصدر والصفحة.

(٦٤) اللطايف السنية ورقة ١١ ب

(٦٥) المختار من تاريخ ثغر عدن ص ١٣٨

ما كان الحال أيام بنى زياد الذين حرصوا على أن يحملوا إلى الخليفة العباسى كل عام الأموال والهدايا النفيسة(٦٦). بل تمتع السلاطين من آل نجاح بكل مظاهر الاستقلال كالركوب بالمظلة ـ وكانت مظهرا من مظاهر الخلافة . وكذلك سك العملة باسمهم(٦٧) وذكر اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة(٦٨) بل اتخذ سلاطين اليمن تقليدا لم يجر العمل به فى أية ولاية من الولايات التابعة للعباسيين وهو تعيين الوزير فقد كان هذا المنصب خاصا بالخلافة فى بغداد ، وربما كان هذا أثرا فارسيا بقى فى اليمن منذ احتلال بلادهم بواسطة الفرس قبيل الإسلام . وكان من حق السلطان أيضا أن يحتفظ بأبناء بعض الولاة أو أقاربهم ليعيشوا فى قصره ضمانا لولاء الولاة . بل كان إذا خرج للحج أخذهم معه . وكان يأخذ أيضا بعض الولاة ممن كان يشك فى إخلاصهم(٦٩) وهذا تقليد حبشى حمله آل نجاح معهم من بلادهم(٧٠) .

ويعيش السلطان فى قصر هو فى نفس الوقت قلعته(٧١) التى يتحصن فيها وكان يبنى على مشارف الجبال ليشرف على كل شىء فى الوادى . ويعج القصر بالنساء(٧٢) وكلهن جوار وإماء . ولكن بينهن واحدة هى أم ولى العهد ويطلق عليها اسم السيدة الحرة(٧٣) ويحيط بالسلطان حرسه الخاص وهو صاحب الأمر فيهم وهو مكوّن من العبيد الذين اشتراهم وسلحهم(٧٤) .

ويلى منصب السلطان فى الترتيب منصب الوزير وكان السلطان هو الذى يعينه فيصبح صاحب السلطة الفعلية فى تدبير أمور الدولة بعد الرجوع إلى السلطان. وكانت الوزارة فى الواقع وزارة تقليدية تمتد سلطة الوزير إلى كل فروع الإدارة(٧٥) ماعدا الجيش ولكن قد يغلب قواد الجيش السلطان فى تعيين الوزير(٧٦). وقد ظل منصب الوزارة طول

(٦٦) قرة العيون ورقة ٣٨ ا
(٦٧) نفس المصدر ورقة ٤٠ ا
(٦٨) اللطايف السنية ورقة ١٢ ا
(٦٩) تاريخ اليمن ص ٩٥
(٧٠) سيرة الحبشة ص ٦٢
(٧١) قرة العيون ورقة ٤٦ ا
(٧٢) نفس المصدر ورقة ٤٤ ا
(٧٣) نفس المصدر ورقة ٤٣ ا
(٧٤) نفس المصدر والصفحة .
(٧٥) قرة العيون ورقة ٤٣ ب
(٧٦) تاريخ اليمن ص ١٠٧

حكم بنى نجاح محصوراً فى الأحباش ولم يخرج من يدهم أبدا. فقد كان مرجان وزيراً لنفيس الذى قتل آخر سلاطين بنى زياد . وإذا ما نجح فاتك فى استرداد عرش أبيه استوزر أبا سعيد خلف بن أبى الطاهر الذى شاركه أيام محنته [٧٧] وحارب معه حتى استرد عرشه . ويعود أكبر الفضل فى نجاحهما إلى جهاده مع مولاه . ثم أطلقت يده فى كل أمور الدولة حتى لقد سمى قسيم الملك ، ونجحا معا فى إرساء قواعدها .

وإذا ما تولى العرش فاتك بن جياش استوزر أنيسا الفاتكى واستبد هذا الأخير بالأمر حتى لقد قلد مولاه الركوب بالمظلة وضرب السكة باسمه . مما أوغر عليه قلب سيده فما زال به حتى قتله وصادر كل ممتلكاته [٧٨] واستوزر بعده أبا الفضل من الله الفاتكى الذى تقول المصادر عنه إنه كان أكرم الناس وأكثرهم شجاعة . وكان له الفضل الأكبر فى إرساء قواعد الدولة بعد أن عصفت بها ثورة نجيب الدولة بعد أن هجم على زبيد وكاد يستولى عليها . ولم تتحقق هزيمته إلا بعد أن قتل من أصحابه ثمانمائة فى أواخر سنة ٥١٨هـ . ويبدو أن أبا الفضل قد أصبح صاحب السلطة العليا . بل جاوزت سلطته سلطة السلطان فعمل الأخير على أن يدفع بآخرين كى يزاحموه فما كان منه إلا أن قضى على هؤلاء المزاحمين بل قضى على السلطان نفسه حين شعر بتعضيده لهم . وقد استعان الوزير فى مؤامرته بجارية السلطان وزوجته وكان ثمن هذه المساعدة إجلاس ابنها فاتك على العرش بدلا من أبيه وكان صغيراً

وكان ترأس الوزير لهذه السلسلة من المؤامرات ونجاحه فيها سببا فى ازدياد نفوذه حتى أصبح لا يقف أمامه شىء مطلقا. فأمعن فى التجبر فوصل إلى حد الفجور حتى تاقت نفسه إلى معاشرة بنات مواليه الأبكار فتآمرن عليه ومعهن زوجة مولاه الأول ووالدة السلطان الجديد ونجحن فى قتله [٧٩] .

وكان خلفه فى منصب الوزارة حبشيا أيضا هو رزيق الفاتكى إلا أنه كان ضعيفا

---

(٧٧) اللطايف السنية ورقة ٢٠ ا (٧٨) قرة العيون ورقة ٤٤ ا

(٧٩) قرة العيون ورقة ٤٤ ا

فغلبه على أمره رجال من الأحباش آخرون أكثر قوة منه وأقرب إلى قلب السلطان ووالدته فلم يجد الوزير بدًّا من ترك منصبه قبل أن يقتل . وكان خليفته ضعيفا مثله فلم يستمر طويلا وغلبه إقبال الفاتكى الذى نجح فى قتل السلطان فحقد عليه قوادالجيش فعزلوه وولوا مكانه قائد الجيش سرورا الفاتكى .

وبذلك أصبح منصب الوزارة موضع التنافس بين الأنصار ولم يعد التنافس يدور حول منصب السلطان .

ولعل هـذه الحالة تشبه إلى حد كبير ما حدث فى مصر فى نهاية الدولة الفاطمية فى هذا الوقت حين غلب الحافظ (٥٢٤ ـ ٥٤٤) (١١٣٠ ـ ١١٤٩) الوزير أحمد ابن الأفضل بن بدر الجمالى[٨٠] فدبر الخليفة قتله ونجح وقلد الوزارة لبهرام الأرمنى الذى طغى كسلفه فثار عليه رضوان بن الولخشى وطرده . ولم يكن ابن الولخشى أقل من سلفه تجبراً فلم يملك الحافظ إلا أن يستقدم بهرام من جديد ليقتل ابن الولخشى بعد حرب طويلة . وتكررت الصورة فى عهد الظافر[٨١] حين دارت الحرب بين ابن السلار ومنافسه ابن مصال . وكانت نتيجة هذه المنافسة قتل الظافر نفسه . وإذا ما قدم طلائع بن رزيق لينجد الفاطميين فى أيام الفائز دبرت ضده المؤامرات ونجحت فى قتله وبذلك كان الخلاف حول منصب الوزارة فى اليمن سبباً فى زوال سلطة آل نجاح كما كان سبباً فى إزالة سلطان الفاطميين فى مصر .

ويبدو أن أكبر ماأهل سرورا لمركز الوزارة ـ إلى جانب شجاعته فى الحرب ـ هو إخلاصه الشديد لوالدة السلطان وتركه مقاليـد الأمور إليها ـ وله فى الظاهر ـ لتتصرف فيها وفق ما تريد .

وإلى سرور يعود الفضل كل الفضل فى إعادة حكام الأقاليم إلى الولاء لآل نجاح بعد أن خرج أغلبهم ، كحاتم بن أحمد صاحب همدان الذى سار إلى صنعاء ودخلها فى سبعمائة فارس، والإمام أحمد بن سليمان صاحب صعدة، وعلى بن مهدى الحميرى بالعنبرة

(٨٠) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٧٩ (٨١) مصر فى العصور الوسطى ص ١٢٣

فى أسفل وادى زبيد كما تحصن الوزير السابق مفلح فى قلعة الكرش وشن الغارات على تهامة . واجتمع إليه عالم كثير بلغ أربعين ألفاً ، فخرج إليهم سرور ومازال ينفرد بكل منهم واحداً بعد الآخر حتى أخضعهم جميعا وأعاد لسلاطين بنى نجاح هيبتهم ومكانتهم (٨٢) وكانت آخر الثورات ثورة محمد بن فاتك بن جياش اخو السلطان حين انتهز فرصة خروج سرور لإخضاع الشريف غانم السليمانى الذى انضم إلى مفلح ودخل إلى زبيد واستولى على دار الإمارة وأعلن نفسه سلطانا فلم يملك السلطان سوى التحصن فى إحدى حجرات القصر فما إن عرف سرور بذلك حتى ترك المهمة التى ندب إليها وأسرع عائداً إلى زبيد واقتحمها وتسلق إلى القصر بالحبال . وكان ظهوره فى القلعة بمثابة الطلسم الذى حول الجنود فانضموا إليه ومعهم بقية الحاشية فلبسوا الدروع والسيوف وما إن رآهم حراس الأبواب حتى فتحوها لهم فهجموا على محمد وأنصاره وما زال يطاردهم حتى قتل منهم مقتلة كبيرة واسترد للسلطان عرشه المفقود . وشعر السلطان ووالدته بفضل سرور فأحلوه مكانا مرموقا حتى كانت أم السلطان تنزل عن سريرها لتستقبله (٨٣) وظل سرور قائما على حراسة الدولة مخلصا لآل نجاح . فلا غرابة إذا شعر الراغبون فى الثورة إن هذا الرجل لو أزيح عن طريقهم لانهارت الدولة من أساسها وكان هذا ماحدث فعلا فقد دس له ابن مهدى من قتله وهو يصلى فى مسجد كان قد بناه فى مدينة زبيد . فكان هذا إيذانا بظهور التنافس بين موالى بنى نجاح كل منهم يريد أن يحظى بمركز الوزارة (٨٤) الذى هو مركز السلطة الحقيقية وأخيراً فاز ابن مهدى وكان فى ذلك القضاء الأخير على دولة بنى نجاح .

ويلى منصب الوزارة فى الأهمية منصب قائد الجيش وهو الذى يتولى حماية السلطان (٨٥) والذب عن الدولة والقضاء على الثورات . وهو لم يزد عن كونه مملوكا اشتراه السلطان ولذا كان اسم السلطان يضاف دائما

---

(٨٢) اللطايف السنية ورقة ٢٥ ا

(٨٣) قرة العيون ورقة ٤٦ ب

(٨٤) قرة العيون ورقة ١٤٨ .

(٨٥) تاريخ اليمن ص ١١٧

إلى اسم القائد ليدل على أنه هو الذى اشتراه وربّاه . ولابد أن الشجاعة والولاء للسلطان كانا الوسيلتين للترقى فى سلك الخدمة العسكرية . وكان ولاء سرور الفاتكى للسلطان ووالدته هو الذى أهله لأن يكون صاحب أكبر قوة فى الدولة . ولابد أن رئاسته للجند كانت تعطى صاحب هذا المنصب قوة تجعله الرجل الثانى فى الدولة بعد الوزير. وقد يجمع قائد الجيش بين منصبه ومنصب الوزير إذا رفعه بقية القواد إلى هذا المنصب(٨٦) وفى هذه الحالة لن تقف قوة أمامه خصوصاً إذا قرن ذلك بالولاء للسلطان.

ولابد أن صاحب هذا المنصب هو الذى كان يتولى شراء العبيد وضمهم إلى الجيش وتزويدهم بالسلاح والملابس وتعيين من يدربهم على الحرب . ولابد أن إدارة كبرى للجيش كانت تحت إدارته مهمتها شراء العبيد وتجهيز الجيش وشراء الخيول وتدريبها وإعدادها بكل ما يلزمها . وأخيراً هناك قواد دونه فى الرتبة يتولون قيادة الألوية الصغيرة التى يتألف منها الجيش المحارب ويبدو أن أغلبهم كان من الفرسان .

مركز المرأة : لم يكن من التقاليد الإسلامية أن تبرز المرأة لتساهم فى الأمور العامة. فلم تظهر أيام الخلفاء الراشدين أو بنى أمية أو بنى العباس واحدة ذات مكانة فى المجتمع أو أسهمت برأى وخاصة فى الأمور السياسية . كما كان الأمر كذلك فى اليمن . ولكنا نجد الأمر مختلفاً عن ذلك أيام بنى زياد وبنى نجاح . وإذا عرفنا أن دولة بنى زياد كانت عربية السلطان ، حبشية فيمن اعتمدت عليهم من الوزراء ورجال الجيش ، أمكننا أن نقول إن بداية للتقاليد الحبشية ظهرت ممثلة فى ظهور المرأة على مسرح الحوادث وإصرارها على أن تلعب دوراً مهمًّا فيه . فقد مات أبو الجيش إسحق ابن إبراهيم بن زياد سنة ٣٩١ وترك ولدا صغيرا اسمه عبد الله كفلته أخته هند بنت أبى الجيش . ولم يكن دورها يقف عند حد الكفالة إذ يحدثنا نفس المصدر أن الحسين

---

(٨٦) قرة العيون ورقة ٤٥ ا .

ابن سلامة كان وزيرا لولد أبي الجيش وأخته . مما يقطع أنها كانت صاحبة سلطة حقيقية فى دولة بنى زياد[٨٧] وإذا ما مات السلطان انتقل الأمر إلى طفل آخر من بنى زياد كفلته عمة له . وإذا ما قام أنيس بالقضاء على دولة بنى زياد لم يكتف بقتل السلطان بل قتل أيضا عمته الكافلة[٨٨] مما يدل على خوفه من أن يتجمع أنصار بنى زياد حولها ويكونون سبباً فى فشل محاولته . كل هذا يدل على أن المرأة كانت تلعب دورا هاما فى الحياة السياسية خلال حكم دولة بنىزياد . ومرد هذا الأمر لم يكن تقاليد عربية مرعية إنما هى تقاليد حبشية حملها إلى اليمن هؤلاء الذين كانوا عصب الدولة وعدتها .

وقد عنى جميع المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الفترة من تاريخ اليمن بذكر السيدة الحرة سيدة بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحى التى كانت مثقفة . تقول الشعر وتروى التاريخ[٨٩] وقد تربت فى حجر أسماء زوجة أسعد بن شهاب ثم تزوجت المكرم بن على بن محمد الصليحى فكانت هى المدبرة الحقيقية لجميع أمور الدولة . بعد أن انصرف زوجها إلى انتهاب اللذات . فدعى لها على المنابر بعد زوجها وهى التى خرجت على رأس جيش إلى ذى جبلة لاستردادها بعد أن استولى عليها سعيد ابن الأحول. بل هى التى دبرت قتل هذا الأخير[٩٠] وإذا مامات زوجها أرسل إليها الخليفة الفاطمى هدايا كثيرة يحملها وفد يلح عليها فى أن تتزوج داعيته سبأ بن أحمد بعد أن رفضته نخاطبها الوفد بألقاب الملك[٩١] .

والدولة الصليحية وإن كانت عربية إلا أنها كانت كذلك بالاسم فقط إذ كانت حبشية فعلا لقيام هؤلاء بكل أمورها . فظهور المرأة لم يكن إلا تقليدا حبشيا نشأ وانتشر بظهور الأحباش على مسرح السياسة اليمنية وتصريفهم جميع الأمور فيها .

---

(٨٧) اللطايف السنية ورقة ١١١ .

(٨٨) قرة العيون ورقة ٣٩ ب

(٨٩) Kay, yamen p. 39

(٩٠) Kay, yamen p. 41

(٩١) قرة العيون ١٤٥

وإذا ماقامت دولة بنى نجاح ظهرت المرأة على مسرح الحوادث ظهورا لم يسبق له مثيل فى دولة إسلامية أخرى . اللهم إلا فى دولة بنى مخزوم التى قامت فى شوافى نفس الوقت[٩٢] .

فإذا ما تولى منصور ابن جياش . كانت زوجته عــــلم صاحبة الأمر كله . بل ظلت كذلك ستا وعشرين سنة . فكان التقرب إليها هو وسيلة السلطة وكانت هى التى تعين الوزراء أوتعزلهم . وكان غضبها على وزيرها مفلح الفاتكى حين منعها من الحج كافيا لإثارة نفوس الأحباش جميعا على هذا الوزير . ولم تهدأ نفوسهم إلا حين عزل الوزير وسارت هى إلى الحج مجهزة بالمال والرجال . وكان الناس ينتهزون فرصة حجها ليسيروا فى ركابها ليأمنوا على أنفسهم[٩٣] .

وكانت هى التى عينت رزيق الفاتكى ثم سرورا قائدا للجند ثم وزيرا[٩٤] . وكان يخرج للغزو ثم يعود فيقدم لها فروض الطاعة والولاء . ويعفر خده بين يديها فى الأرض[٩٥] ولا يرفع رأسه إلا إذا أمرته . بل كان يحرص على لقائها كل يوم ليستشيرها فى كل أمر من أمور الدولة[٩٦] . وكتب إليها ابن مهدى يستعطفها ويطلب منها الصفح فوهبته إياه رغم نصيحة جميع رجالها برفضه ولكنها إذا أمرت به ارتضى الجميع حكمها[٩٧] . بل وهبته خراج أرضه رغبة فى استمالته فأقسم لها يمين الولاء بدوره . ولكن بموتها سنة ٥٤٥ رأى نفسه وقد تحلل من هذا اليمين . فثار للمرة الثانية ونجح فى ثورته . وربما يعود بعض نجاحه لا إلى قوته فحسب بل إلى موت الحرة علم ، التى كانت بمثابة اللواء يجتمع حوله الأنصار دفاعاً عن دولتهم ، حتى إذا فقدوه لم يجدوا أمامهم ما يستحق الدفاع . فتخاذلوا وهزموا .

---

(٩٢) Cesulli, Rassegne V, I
(٩٣) قرة العيون ورقة ٤٤ ا
(٩٤) نفس المصدر ورقة ٤٤ب
(٩٥) نفس المصدر ورقة ٤٦
(٩٦) تاريخ اليمن ص ١٢٠
(٩٧) قرة العيون ورقة ٤٧ ب

الحالة الاقتصادية: لم تذكر لنا المصادر على وجه صريح شيئاً عن حرفة الأهالى وحالة البلاد الاقتصادية ولكن طبيعة البلاد ومطرها الموسمى يؤهل أهلها لاحتراف الزراعة فى الوديان[٩٨] وكان المطر وسيلة ريهم. حتى إذا انتهى لجأوا إلى الآبار[٩٩]. وقد اختزن القدماء ماء المطر فى خزانات حفروها فى سفوح الجبال بالقرب من القمة. أو وراء سدود أقاموها فى بعض الوديان وكان أشهرها سد مأرب وما زالت بقايا هذه الخزانات موجودة حتى الآن ويستعمل اليمنيون الحاليون بعضها .

وقد أينعت الزراعة وانتعشت لنشاط اليمنيين وكان الحكام يجمعون منها خراج الأرض[١٠٠] وكان كثيرا . سمح لأحد الحكام أن يحمل إلى السلطان كل سنة ستة ألف ألف دينار بعد المؤن اللازمة[١٠١] وكان غانم السليمانى صاحب مخلاف طرف يحمل إلى سيده كل عام ستين ألف دينار[١٠٢] وكذلك الوزير سرور كان يحمل إلى بيت مال مولاه مثل هذا القدر[١٠٣] وإذا ماقتل سعيد بن الأحول بن نجاح على الصيلحى غنم منه ألفى فرس بعددها وثلاثة ألف جمل بعددها[١٠٤] .

ويبدو أن السلاطين قد تركوا لهؤلاء الحكام أمر فرض الضرائب وجبايتها على أن يصرفوا منها على ولاياتهم وعمارتها ما شاءوا ويحملوا الباقى إليهم . فيصبح مالهم الخاص يصرفونه وفق ما يريدون . وقد أتاح لهم هذا أن ينعموا بوافر الثراء . حتى إذا تجهز الصليحى للحج سار فى أبهة عظيمة وبين يديه خمسمائة فرس بالسروج الذهب[١٠٥] كما ترك منصور بن فاتك حين توفى ألف سرية[١٠٦]

---

(٩٨) تاريخ اليمن ص ٦٣
(٩٩) قرة العيون ورقة ٣٨ ب
(١٠٠) نفس المصدر ورقة ٤٧ ب
(١٠١) اللطايف السنية ورقة ١٧ ا
(١٠٢) قرة العيون ورقة ٤٥ ب
(١٠٣) تاريخ اليمن ١١٩
(١٠٤) نفس المصدر ص ٩٦
(١٠٥) اللطايف السنية ورقة ١٧ ب .
(١٠٦) قرة العيون ورقة ٤٤ ب .

كما سارت الحرة علم، إلى الحج بعد أن جهزت نفسها بثلاثين ألف دينار[١٠٧] بل سمح لهم أيضاً أن يبتنوا (الحصون الباذخة والمعاقل المنيعة والمساكن الرفيعة)[١٠٨] وكذلك الجوامع الكبار والمنابر الطوال فقد بنى الحسين بن سلامة ستين جامعا على طول المسافة بين حضرموت ومكة فى كل مرحلة جامع[١٠٩]. بل كان كل منهم يكثر من العبيد والأتباع حتى وصلت قوة الواحد إلى عشرة آلاف بل عشرين ألف محارب كاملى العدة[١١٠]. وإذا ما أراد الخليفة الفاطمى أن يرغم الحرة سيدة بنت أحمد على أن تتزوج من داعيته سبأ، عين لها مهرا قدره مائة ألف دينار نقدا وخمسين ألفا من الهدايا والعطور[١١١] وكان هذا الخراج يجبى مرتين كل عام[١١٢].

ولكن هذا النشاط الزراعى لا يقاس شيئا إلى جانب نشاطهم التجارى فقد كانت تجارتهم برية وبحرية . تسير الأولى إلى الحجاز والعراق كما تسير الثانية إلى دهلك والحبشة والهند . وقد هرب أولاد نجاح إلى دهلك لا لأنها كانت مركز تجارة الرقيق فحسب بل لأن الرحلة إليها كانت سهلة ميسورة . كما هرب جياش إلى الهند لنفس السبب . وكان قصر مدة إقامته بالهند دليلا كذلك على كثر السفن التى كانت تتردد على موانى البلدين . وقد أقام جياش متنكراً بذى جبلة فى زى فقير هندى[١١٣] مما يجزم إنه كانت هناك جالية هندية كبيرة تعيش فى هذا المركز حتى إن ظهوره فى زيهم ومظهرهم لا يثير ريبة أحد ولابد أن ذى جبلة هذه كانت — علاوة على كونها مركزاً حصينا — مركزاً تجاريا للتجارة الهندية يتردد عليها التجار الهنود يقيمون فيها مراكزهم التجارية وهذا يؤيد ماذكره Kamerer[١١٤] من أن اليمنيين والحضارمة كانوا للمحيط الهندى مثلما كان البنادقة والجنويون للبحر المتوسط وكان هؤلاء التجار يدفعون عن تجارتهم المكوس سواء سافروا بطريق البر أو البحر[١١٥]

(١٠٧) نفس المصدر ورقة ٤٥ ا .
(١٠٨) نفس المصدر ورقة ٣٧ ب
(١٠٩) نفس المصدر ورقة ٣٨ ب
(١١٠) Kay, p.92.
(١١١) Ibid p. 47.
(١١٢) اللطايف السنية ورقة ٢١ ا
(١١٣) قرة العيون ورقة ٤١ ا .
(١١٤) Kamerer Tom II, p. 297
(١١٥) قرة العيون ورقة ٤٤ ا

وكانت الرياح الموسمية المنتظمة تساعد سفنهم على السير فى أمان. وكانت وحدة العقيدة بينهم وبين القرصان الذين كانوا يعملون فى البحر الأحمر تسهل عليهم مهمتهم أو تسهل عليهم الاتفاق على مبلغ معين يدفعونه إليهم لقاء عدم التعرض لسفنهم . وكانت سفنهم تسير إلى زيلع أوإلى عيذاب وقد زار ابن جبيرالمدينة الأخيرة فى هذه المدة . فقال عنها إنها من أحفل مراسى الدنيا [١١٦]. عاش فيها كثير من اليمنيين يحترفون نقل التجارة بالجمال[١١٧] بل كان منهم كثيرون فى قفط [١١٨] التى كانت هى الأخرى من أنشط مدن مصر تجارة مع اليمن .

وكان هؤلاء التجار يحملون إلى مصر التوابل من الهند والجواهر من سيلان . والقرنفل وخشب الصندل من الصين الهندية . والفلفل من ملبار . والنحاس من كابانا والمسك والكشمير من السند والحرير من الصين واللبان والبخور وسن الفيل من الحبشة .

وقد اشتهرت اليمن فىذلك الوقت بالصناعةأيضا وكانت أكثر الصناعات رواجا: مستلزمات الرحلات البحرية من سفن وحبال وأشرعة ، أو الرحلات البرية . فقد ذكر ابن جبير أيضا : « أن أحسن مايستعمل عليها ـ الإبل ـ الشقاديف وهى أشباه المحامل. وأحسن أنواعها اليمانية لأنها مجلدة متسعة. يوصل منها الاثنان بالحبال الوثيقة وتوضع علىالبعير . ولها أذرع قد حفت بأركانها . يكون عليها مظلة فيكون الراكب فيها مع عديله فى كن من لفح الهاجرة » .

وكان للأحباش عامة ولرجال دولة بنى نجاح خاصة أثرهم فىانتشار العمران ومظاهر الثقافة الإسلامية والعربية فى اليمن . فقد بنى حسن بن سلامة وزير الصليحيين كثيرا من الجوامع الكبار . كما جدد جامع عدن[١١٩] وأكثر من هذا اختط مدينة الكوراء[١٢٠] التى أصبحت مدينة كبيرة بين مدن اليمن . كما بنى أنيس الفاتكى دارا

(١١٦) رحلة ابن جبير ص ٤٢ — (١١٧) نفس المصدر ص ٣٩
(١١٨) نفس المصدر ص ٣٧ — (١١٩) قرة العيون ورقة ٣٨ ب
(١٢٠) اللطايف السنية ورقة ١١ ب

عظيمة عرض كل قاعة منها ثلاثون ذراعا[١٢١] حين استأثر بالأموال . ولم يقتصر على دار واحدة بل ابتنى عددا من القصور العظيمة الواسعة[١٢٢] ولم يكن سرور آخر وزراء بنى نجاح أقل من غيره التفاتا إلى بناء المساجد والقصور[١٢٣] رغم الحروب الطويلة التى انهمك فيها من أجل المحافظة على سلامة الدولة وكان أشهرها جامع زبيد الذى قتل فيه .

واشتهر سلاطين الدولة ووزراؤها بثقافتهم الواسعة وتعمقهم فى الدرس وتشجيعهم وإجلالهم للعلم والعلماء . فقد كان جياش بن نجاح متصفا بالعلم فقد عكف عليه حتى برع فيه[١٢٤] وكان له شعر رائق[١٢٥] وقد شاهد عمارة اليمنى ديوان هذا الوزير ضخما مجلدا . كما شاهد مؤلفاته فى تاريخ ملوك زبيد[١٢٦] ولا بد أن تدوين مثل هـــذا المجلد الضخم استلزم عددا من النساخ . كان السلطان يستخدمهم ويصرف عليهم ، لا فى نسخ مؤلفاته فحسب بل فى نسخ مؤلفات بقية العلمـــاء الذين أسبغ عليهم السلطان عطفه وتشجيعه[١٢٧] وعنى جياش بتعليم أولاده فـكان يخصص لهم العلماء والمؤدبين وكان يشرف على تربيتهـــم بنفسه ويسأل المؤدبين عن أولاده ويوجههم بإشاراته التى تدل لا على اهتمامه فحسب بل على تحديد أهدافه من وراء هذا التعليم[١٢٨]. وابتنى المنصور ابن فاتك فى زبيد مدارس كثيرة . كما كان أبو الفضل من الله الفاتـــكى وزير منصور ابن فاتك يجل الشعراء ويجيزهم ويأتنس برأيهم . بل كان فقهاء المذاهب موضع الرعاية منه ، فـكان لاينى عن بذل العطاء لهم كى يعيشوا فى بحبوحة من العيش[١٢٩]. كما كان مفلح الفاتـــكى من أهل الخبرة فى الفقه والأدب حتى كان الناس يقولون عنه أنه لو جمع إلى ذلك نسبا قرشيا لاستحق الخلافة[١٣٠] وكان مسرور إذا عاد من الحرب

---

(١٢١) تاريخ اليمن ص ١٠٢
(١٢٢) قرة العيون ورقة ٤٣ ب
(١٢٣) نفس المصدر ورقة ٤٦ ب
(١٢٤) تاريخ اليمن ص ٩٢
(١٢٥) قرة العيون ورقة ٤٢ ا .
(١٢٦) تاريخ اليمن ص ٣٥
(١٢٧) قرة العيون ورقة ٤٢ ب
(١٢٨) نفس المصدر ورقة ٤٢ ا
(١٢٩) تاريخ اليمن ص ١٠٣
(١٣٠) نفس المصدر ص ١٠٧

خرج الناس لاستقباله فيحييهم وهو راكب جواده ، إلا إذا وصل إلى الفقهاء ترجل لهم . ولم يكن يترجل لغيرهم(١٣١) وكان يصرف عليهم ألف دينار كل شهر(١٣٢) .

ولم تكن هذه الثقافة ولا هذا التعليم أوتشجيع العلماء المتوالى سواء من السلاطين أو الوزراء إلا نتيجة سياسة مستقرة ثابتة ترمى إلى الإكثار من المدارس والمكتبات ودور العلم التى يقبل عليها الطلاب من أجل التعلم والتثقف على يد أساتذة تخصصوا فى هذه العلوم ولقوا من وراء اشتغالهم بالعلم كل رعاية من الدولة . ولم تقف الثقافة عند حد الرجال بل كانت أسماء بنت شهاب مثقفة . وهى التى تولت تربية سيدة بنت أحمد حتى جعلتها تجيد الشعر وروايةالتاريخ(١٣٣) . ولم تذكرلنا المصادر شيئا عن ثقافة الحرة علم ولكن إجلالها للعلماء وتقدير رجال الدولة لها ، وقبضها على أزمة الأمور تديرها طيلة ست وعشرين سنة ينم ولا ريب عن ثقافة واسعة وبعد نظر بل عن تفهم دقيق لمقتضيات الظروف والأحوال .

وإذا كان انتهاء دولة بنى نجاح يشبه إلى حد كبير انتهاء دولة الفاطميين فى مصر من حيث ازدياد سلطة الوزراء وتكالب القواد على هذا المنصب حتى أدى الأمر إلى انتهاء أمرهم . إلا أنها تشبه فى مظاهر أخرى كثيرة دولة المماليك التى قامت فى مصر فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى فقد كان القائمون بالأمر فيهما من العبيد الذين اشتراهم أسيادهم بالمال من أسواق الرقيق من أجل اتخاذهم سندا لهم ، ودربوهم على القتال . وانتهى بهم الأمر إلى تآمرهم على هذه الدولةالتى جلبتهم حين سنحت الفرصة المناسبة . وكان كل منهم أجنبيا عن البلد الذى أتى إليه يتكلم لغة أجنبية ويعتنق ديانة مخالفة . ولكنهم تعلموا اللغة العربية واعتنقوا الدين الإسلامى . وأخلص كل منهما لهذه اللغة وهذا الدين بل تحمس كل منهم لهما حماسة أدت بهم إلى العمل على

(١٣١) نفس المصدرص ١١٨ (١٣٢) نفس المصدر ص ١١٩

(١٣٣) Kay p. 93

اتخاذ هذه اللغة وهذا الدين أساس للحكم فى وطنهم الجديد وعملوا على نشر الثقافة العربية وخدمة الدين الإسلامى ببناء المساجد وفتح المدارس وتشجيع العلم الإسلامى والعلماء المسلمين وعمل رجال كل من الدولتين أيضا على المحافظة على وحدة البلاد وإعلاء كلمتها .

زاهر رياض